المورد

الأدب العـراقي القـديم
ومصـادر رسـالة الغفـران

بقـــلم
طراد الكبيسي

يحتل الادب العراقي القديم (اساطير وملاحم وقصـــائد غنائية ..) مكانة خاصة من بين التراث العربي والانساني . لدى بعض الشعراء العراقيين المعاصرين (البياتي ـ السياب ـ حسب الشيخ جعفر) وقبلهم بزمن طويل : ابو العلاء المعري في رسالة الغفران .

والذي نعتقده اولا ، ان تاثر المعري بهذا الادب كان تاثرا غير مباشر ، من خلال الموروث الشعبي الشائع . ذلـك ان هذا الادب ، لابد انه كان شائعا ـ دون ان تعرف اصوله ـ على شكل حكايات واساطير وخرافات ، ومتداخلا مع مصادر التراث الانساني الاخرى : اليوناني والفارسي خاصة .

وقد يبدو وهذا الزعم غريبـا ، خاصـة وان الدراســات التي تناولت رسالة الغفران وكشفت مصادرها ، تجاهلت هذا الادب تماما ـ جهلا به او تجاهلا له ـ واعتبرت الكثير من الاساطير والصور التي تضج بها رسالة الغفران ، على انهـا يونانية . .

(دراسات لويس عوض مثلا) بينما هي في حقيقتها ليست سوى اساطير وصور عراقية شائعة في الموروث الشـــعبي الشفاهي ، او متحولة من صيغتها العراقية الى صيغـــة يونانية او فينيقية ، وربما فرعونية . فادونيس مثلا وانيروريس ليسا الا رموز البابلي .

واوديسيوس ليس الا صورة متحولة لجلجامش بطل الملحمة المشهورة باسمه . وفينوس هي عشتار ... ونحن هنا ، وان كنا لا نجزم بتاثر المعري بالادب العراقي القديم الا بقدر ما يرد الشيء الى اهله ولكن اذا كان البعض يفترض تاثر المعـري بالاداب اليونانية القديمة استنادا الى اصول القصائد والخرافات والصور ، واذا كانت هذه الصور والمعتقدات عراقية ، واقدم وجودا من متشابهاتها في الاداب الاخرى ، واكثر شـــيوعا .. فالاولى اذن ان نفترض تاثر المعري بها لاسباب تاريخية وحضارية وبيئية بحيث يبدو الفرض اكثر واقعية من ارجاعه الـــى متشابهات ابعد .. دون ان ننكر امكان تاثر المعري بتلك الاداب، بل انه ليبدو في كثير من الصور الاخرى والتي اشار اليها الدكتور لويس عوض في كتابه وعلى هامش الغفران) (١) اكثر قربا الى اليونان من اي مصدر اخر .

* * *

١ ـ يفترض الدكتور عوض ان المعري حين يحدثنا عن (طعام الخلود) وشراب الخلود او « ماء الحيوان » كما جاء في رسالة الغفران اذ نرى ابن القارح يتنزه في ريـــاض الجنة على نجيب من در وياقوت ومعه شيء من طعـــام الخلود ، ذخر لوالد سعد او مولود (٢) ومثل هذا شراب الخلود أو شراب « النكتار » كما يسميه الاقدمـــاء ،

قال المعـري :

« وتجري في اصول ذلك الشجر ، انهار تختلج من ماء الحيوان والكوثر يمدها في كل اوان ، من شرب منها النقبة فلا موت ، قد أمن هنالك الفوت ... » (ص١٤١) .

يفترض الدكتور عوض ان « طعام الخلود » وشراب الخلود هذا ، وهـو مـا كـان يسـمى في الاداب القديمـة « الامبروزيا » (العنبر) قد استقاه المعري من الاداب اليونانية طالما انه ذكر له في المصادر الاسلامية (ص ١٢٤) .

وقد يكون حقا لا ذكر لهذا في المصادر الاسلامية ولكن له ذكرا في المصادر العراقية القديمة ، وهي اقدم بكثير من المصادر اليونانية ، ونجد ذلك في قصة ـ آدابا ـ السومرية ، التـي تروي ان ـ آدابا ـ كان صيادا معنيا بتزويد الالهة بالسمك ، وبينما كان يصطاد السمك ذات يوم ، هبت الرياح الجنوبيـة فقلبت قاربه ، فضربها وكسر جناحها فلم تهب لسبعة ايام ، مما لفت نظر الاله آنو ، فارسل في طلب آدابا واستكشف خبره، وتقبل اعتذاره ، واراد ان ينعم عليه بالخلود فقدم له خبـز الحياة وماء الحياة ، فرفضه تنفيذا لوصية ابيه (ايا) خشية ان يكون ما قدم له هو ماء الموت وخبز الموت ، وبذلك اضاع آدابا فرصة الحصول على الخلود .

---

(١) كتاب الهلال . ع (١٨١) ابريل ١٩٦٦ .
(٢) رسالة الغفران : ت : بنت الشاطىء ـ دار المعـــارف ط ٤ ـ ص ١٧٦ .

٢ ـ ويفترض الدكتور عوض ان حالة الارتداد الى الشباب وارتداء حلة الشباب الدائم التي اشار اليها المعري في اكثر من موضع ، حيث نرى الاعشى مثلا وقد ارتد شابا وسيما . او بلغة المعري :

« فيبتدىء بزهر فيجده شابا كالزهرة الجنية قد وهب له قصر من ونية ، كانه ما لبس جلباب هرم ، ولا تاقف من التبرم ، وكانه لم يقل في الميمية :

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش
ثمانين حولا ، لا ابالك يسأم !
(ص ١٨٢)

ومثل هذا ما حدث لبعض النسوة في الجنة كحمدونه وتوفيق السوداء حيث تستحيل القبيحة الى حسناء ، والسوداء الى بيضاء ..

ان الدكتور عوض يفترض ان حالة الارتداد الى الشباب الدائم والى الفتوة الفارعة بفضل شراب العشب السحري ، انما هي مستقاة من الاداب القديمة ـ والاداب القديمة لا تعني للدكتور عوض الا الاداب اليونانية ! ـ كما حدث لاوديسيوس ورجاله في نعيم الحورية كيركا وحورها . طالما ان هذه الحالة ـ حالة ارتداد البشر في الجنة الى حالة الشباب الدائم ـ ليس لها سند في ابن عباس ولا في المصادر الاسلامية المعتمدة (ص ١٢٦)

ولكنا نجد قبل اوديسيوس الذي صنعه هوميروس في ملحمته ، ان جلجامش في رحلته التي قام بها لزيارة جده ـ اوتونبشتم ، تمكن من العثور على « عشب الشباب » ثم عاد فقده . اذ التهمته منه الحية ، جاء في الملحمة :

سافتح لك ، ياجلجامش ، سرا خفيا
اجل ! ساكشف لك عن سر من اسرار الالهة !
يوجد نبات مثل الشوك ينبت في المياه
انه كالورد شوكه يخز يديك كما يفعل الورد فاذا ماحصلت يداك على هذا النبات وجدت الحياة الخالدة .

وما ان سمع جلجامش هذا القول حتى فتح المجرى الذي اوصله الى الحياة العميقة .

وربط بقدميه احجارا ثقيلة
ونزل الى اعماق المياه حيث ابصر النبات
فاخذ النبات الذي يخز يديه
وقطع الاحجار الثقيلة من قدميه
فخرج من الاعماق الى الشاطىء
ثم قال جلجامش لاور ـ شنابي الملاح :
« يا اور ـ شنابي ـ ان هذا النبات نبات عجيب
يستطيع المرء ان يطيل به حياته
لاحملنه معي الى اوروك الحمى والسور
واشرك معي الناس ليأكلوه
وسيكون اسمه : يعود الشيخ الى صباه كالشباب
وانا سآكله في آخر ايامي حتى يعود شبابي .

٣ ـ اما افتراض شجر الصفصاف بالذات ـ الذي هو من جملة شجر الجنة ، انه لابد ان يكون من رواسب ثقافة المعري اليونانية (ص ٢٦١) فالاولى به ان يكون من « رواسب المعتقدات الفولكلورية الشائعة في زمانه » سواء أكانت من مصدر محلي ام عالمي خاصة واننا نعلم ايضا ان شجر الصفصاف من الاشجار التي ورد ذكرها كثيرا في الاداب العراقية القديمة . وقد صنعت منها عشتار اداتين (بكي ومكي) كما جاء في الاسطورة. وهكذا ايضا شجر الحور .

اذن لا يمكن الا ان تكون لهذه الشجرة مكانة مقدسة او خاصة لدى العراقيين القدماء .